سؤال آفاق وحدود الذكاء الصناعي

د. محمد الدوسي

جامعة مولاي اسماعيل - مكناس

مدخل

قد لا يختلف اثنان في كون الذكاء الصناعي قد أضحى يشكل أحد أبرز تجليات التحولات المعرفية والتقنية في عصرنا هذا، ليس من جهة كفاءته في محاكاة بعض الوظائف الذهنية، التي كانت على الدوام تعتبر حكرا على العقل البشري، فحسب، بل حتى من جهة كونه فرض على الفلاسفة إعادة النظر في بعض المفاهيم مثل العقل، والوعي، والمعرفة، والحرية. لقد تولدت أنظمة منافسة للذكاء الطبيعي، أنظمة لها من القدرة على الإبداع والاستجابة بشكل يصعب الحسم فيما إذا كان الأمر يتعلق بالذكاء الصناعي أم بالذكاء الطبيعي، وهو ما أدى إلى التساؤل عما إذا كان ذكاء الآلة ذكاء أصيلا، أم هو مجرد محاكاة متطورة للسلوك الذكي ليس إلا؟

لا يمكن الاكتفاء بمقاربة هذا الإشكال مقاربة تقنية، وذلك بالنظر إلى أنه يتجاوز حدود الفعالية الحسابية إلى إشكال أنطولوجي، بل وابستمولوجي، يخص طبيعة الذهن في حد ذاتها. فمع النشأة الأولى للذكاء الصناعي، خاصة مع أعمال تورينغ، تم الاحتكام إلى معيار سلوكي للتحقق من ذكاء الآلة من حيث قدرتها على محاكاة أفعال البشر بشكل يصعب معه التعرف عما إذا كان الأمر يتعلق بذكاء آلي، أم بذكاء بشري (Turing, 1950). لكن على الرغم من الأهميته التاريخية لهذا المعيار، فإنه لا يحسم سؤال مدى فهم وإدراك الآلة لما تقوم به بالفعل، ذلك أن البعض يحسب أن عجزها على هذا المستوى هو أهم التحديات الذي يوجه الذكاء الصناعي، معتبرا أن عمل الآلة هو في نهاية المطاف مجرد معالجة صورية- رمزية للرموز بموجب قواعد تسطر لها مسبقا.

في هذا السياق، برزت إشكالات فلسفة الذهن التي أعادت مساءلة العلاقة بين البنية الفيزيائية للأنظمة والظواهر الذهنية التي تنتج عنها. فبينما تبنّت بعض الاتجاهات رؤية وظيفية تعتبر أن الحالة الذهنية تُحدَّد من خلال دورها الوظيفي وليس مادتها، برزت، في المقابل، اعتراضات قوية تشكك في إمكانية اختزال المعنى في البنية الصورية وحدها. وقد ساهم هذا الجدل في بلورة نقاش فلسفي مستمر حول حدود الحوسبة، وإمكانية تمثيل الوعي من خلال أنظمة صناعية.

من جهة أخرى، لا ينفصل هذا النقاش عن التحولات التي يشهدها العالم المعاصر على مستوى الثورة المعلوماتية التي مست نمط حياة الناس. فقد أصبح الإنسان يعيش داخل بيئة رقمية تعتمد بشكل متزايد على الخوارزميات في تنظيم المعلومات وتوجيه، أو اتخاذ، القرارات، مما جعل الذكاء الصناعي جزءاً لا يتجزء من نسيج الحياة اليومية، وليس مجرد تقنيات يمكن العمل بها، أو الاستغناء عنها. وهذا ما يدفع إلى إعادة التفكير في العلاقة بين الإنسان والتقنية، بوصفها علاقة تكامل وتأثير متبادل.

في ضوء ذلك، يطرح هذا البحث إشكالية مركزية تتمثل في: إلى أي حد يمكن اعتبار الذكاء الصناعي كياناً يمتلك خصائص معرفية أو ذهنية حقيقية، أم أنه يظل مجرد نظام محاكاة متقدم يعتمد على معالجة رمزية وإحصائية دون فهم فعلي لما يفعل؟ ويتفرع عن هذه الإشكالية عدد من الأسئلة الفرعية، من قبيل: ما طبيعة العلاقة بين المعالجة الصورية للمعنى، والمعنى في حد ذاته؟ وهل الوعي شرط ضروري لتحصيل الفهم؟ وكيف يمكن تقييم موقع الذكاء الصناعي من وجهة نظر المنظومة الأخلاقية المعاصرة؟

وللإجابة عن هذه الإشكالية، ينطلق البحث من مجموعة من الفرضيات التحليلية، أهمها أن الذكاء الصناعي، رغم قدراته المتقدمة، لا يمتلك قصدية ذاتية بالمعنى الفلسفي الذي يشير إلى توجيه الوعي نحو موضوعات محددة،

وأن ما يبدو كفهم هو في جوهره نتيجة معالجة أنماط إحصائية معقدة. كما يفترض البحث أن النقاش الفلسفي حول الذكاء الصناعي، لا يمكن حسمه من خلال ثنائية بسيطة بين القبول والرفض، بل يتطلب مقاربة تركيبية تأخذ بعين الاعتبار تعدد المستويات: المستوى التقني، المستوى المعرفي، والمستوى الأخلاقي.

نحرص في هذا البحث على إبراز تقاطع ثلاثة اتجاهات فلسفية رئيسية. الاتجاه الأول هو ما يمثله النقد الكلاسيكي لفكرة "الذهن كآلة" كما تجسد في أعمال سورل، الذي يرى أن المعالجة الصورية لا تكفي لإنتاج المعنى أو الفهم (Searle, 1980). أما الاتجاه الثاني فهو ما يمثله تشالمرز الذي ميز بين المشكلات السهلة للوعي والمشكلة الصعبة المرتبطة بالتجربة الذاتية (Chalmers, 1995)، بينما يرتبط الاتجاه الثالث بأعمال فلوريدي، الذي يقدم تصوراً معلوماتياً للأخلاق والوجود (Floridi, 2013).

يتيح الجمع بين هذه المقاربات بناء تحليل فلسفي متعدد الأبعاد للذكاء الصناعي، بحيث لا يقتصر على تقييم جانب قدراته التقنية، بل يتجاوز ذلك إلى مساءلة أسسه الأنطولوجية، وحدوده المعرفية وانعكاساته الأخلاقية. ومن هذا المنطلق، لا يسعى هذا البحث إلى تقديم حكم نهائي حول طبيعة الذكاء الصناعي، بقدر ما يهدف إلى توضيح الموقف الفلسفي منه، وإبراز التوترات النظرية التي تكشف حدود المفاهيم التقليدية في التعامل مع الظواهر التقنية الحديثة.

الجزء الأول: مراجعة نظرية، وتمهيد إشكالي لمفهوم الذكاء

يمثل مفهوم الذكاء أحد أكثر المفاهيم تعقيداً وغموضا في تاريخ الفلسفة والعلوم المعرفية، إذ لا يوجد له تعريف واحد متفق عليه، بل تتعدد مقارباته بحسب الخلفية النظرية التي يتم الانطلاق منها. فالتصورات الكلاسيكية للذهن، كما نجدها في الفلسفة العقلانية، كانت تتخذ من قدرة الكائن على التفكير المجرد والاستدلال المنطقي، مؤشرا على ذكائه، بينما اتجهت المقاربات التجريبية، لاحقاً، إلى ربطه بالسلوك القابل للملاحظة والقياس. فمع ظهور الحوسبة، انتقل النقاش إلى مستوى جديد، بحيث أصبح الذكاء يُفهم بوصفه كفاية على المستوى التمثيل الرمزي، والمعالجة الإجرائية للمعلومات، وهو ما مهّد لظهور الذكاء الصناعي كحقل علمي مستقل.

في هذا السياق، ساهمت أطروحة تورينغ في إعادة تعريف السؤال حول الذكاء من خلال اقتراح معيار سلوكي بديل يعتمد على المحاكاة. فقد ذهب إلى أن القدرة على تقليد السلوك الذكي بشكل لا يمكن تمييزه عن سلوك الإنسان يمكن أن تُعد مؤشراً كافياً على الذكاء. غير أن هذا التصور، رغم تأثيره الكبير، لم يحسم الجدل الفلسفي، بل فتح الباب أمام تساؤلات أعمق حول طبيعة الفهم والمعنى.

وقد جاءت المقاربة الرمزية في الذكاء الصناعي الكلاسيكي لتدعم هذا الاتجاه، ذلك أن الذهن عُد بمثابة نظام لمعالجة الرموز وفق قواعد محددة. وقد دافع هذا التصور عن إمكانية بناء أنظمة ذكية عبر محاكاة العمليات الذهنية باستخدام الحوسبة. غير أن هذا النموذج واجه انتقادات، أبرزها تلك التي قدمها سورل، الذي شكك في إمكانية أن تؤدي المعالجة الرمزية إلى فهم حقيقي، مقرا بالفرقً الجوهريً بين تنفيذ القواعد وفهم المعنى (Searle, 1980).

تُظهر هذه الانتقادات أن المشكلة لا تكمن في كيفية تصميم الأنظمة الذكية فحسب، بل حتى في الأسس الفلسفية التي تقوم عليها فكرة الذكاء نفسها. فهل الذكاء خاصية سلوكية يمكن ملاحظتها وقياسها؟ أم أنه يتضمن بُعداً داخلياً يتعلق بالوعي، والتجربة الذاتية؟ هذا السؤال ظل حاضراً بقوة في فلسفة الذهن خاصة مع تطور النقاش حول العلاقة بين الدماغ والذهن؛ بين الفيزيائي والظاهراتي.

وفي هذا الإطار، برز موقف تشالمرز الذي قدم تمييزاً مهماً بين نوعين من المشكلات المرتبطة بالوعي:

المشكلات السهلة التي تتعلق بوظائف الإدراك والمعالجة العصبية، والمشكلة الصعبة التي تتعلق بظهور التجربة الذاتية نفسها .(Chalmers, 1995)يُعد هذا التمييز من أكثر الإسهامات تأثيراً في فلسفة الذهن المعاصرة، لأنه يعيد صياغة السؤال حول الوعي بوصفه لغزاً غير قابل للاختزال إلى التفسير الفيزيائي التقليدي.

وبالموازة مع هذا الطرح قدم توماس نيغل Thomas Nagel تصورا مضادا للتأويل الفيزيائي لمفهوم الوعي، فقد أكد أن هناك جانباً ذاتياً للتجربة لا يمكن أبدا الوصول إليه من منظور موضوعي خارجي، ذلك ما يتضح في سؤاله حول طبيعة الوعي من الداخل .(Nagel, 1974)يتعزز هذا الموقف بالفكرة القائلة بأن أي تفسير علمي للظواهر الذهنية قد يظل ناقصاً ما لم يأخذ بعين الاعتبار البعد الظاهراتي للتجربة.

في المقابل، ظهرت مقاربات حديثة تحاول تجاوز هذا الإشكال من خلال إعادة تعريف العلاقة بين الذهن والبيئة. فقد اقترحت نظرية "الذهن الممتد" أن العمليات المعرفية لا تقتصر على الدماغ، بل تمتد إلى الأدوات والبيئة المحيطة، مما يعني أن التكنولوجيا يمكن أن تصبح جزءاً من النظام المعرفي نفسه (Clark & Chalmers, 1998). ووفقاً لهذا التصور، فإن الحدود بين الإنسان والآلة ليست ثابتة، بل قابلة لإعادة التشكيل تبعاً لطبيعة التفاعل بينهما.

هذا وقد ساهمت المقاربات الوظيفية في دعم فكرة أن الحالة الذهنية يمكن تعريفها من خلال دورها داخل النظام، وليس من خلال مادتها الفيزيائية. وقد شكل هذا الاتجاه أساساً لكثير من نماذج الذكاء الصناعي الحديثة التي تعتمد على محاكاة الوظائف الإدراكية بدلاً من محاولة تقليد البنية البيولوجية مباشرة. غير أن هذا التصور لا يزال محل نقاش، خاصة فيما يتعلق بقدرته على تفسير المعنى والوعي.

ومن ناحية أخرى، قدم فلوريدي مقاربة مختلفة تركز على البعد المعلوماتي للوجود، حيث يرى أن العالم المعاصر يمكن فهمه بوصفه فضاء معلوماتياً تتفاعل داخله الكيانات المختلفة .(Floridi, 2013) ومن هذا المنظور، لا يُنظر إلى الذكاء الصناعي ككيان مستقل، بل كعنصر ضمن شبكة معلوماتية أوسع، مما يسمح بإعادة صياغة الإشكال الفلسفي من سؤال الوعي إلى سؤال التأثير، والتنظيم الأخلاقي.

تشير الأدبيات المعاصرة، في الذكاء الصناعي، إلى أن التطورات الحديثة، خاصة في مجال التعلم العميق، قد أدت إلى ظهور أنظمة قادرة على تحقيق أداء متقدم في مهام معقدة، مثل معالجة اللغة الطبيعية والتعرف على الأنماط.(Russell & Norvig, 2021) غير أن هذا التقدم التقني لم يحسم الجدل الفلسفي، بل زاد من تعقيده، حيث أضحى من الصعب التمييز بين المحاكاة الدقيقة وبين الفهم الحقيقي.

وتذهب بعض الدراسات النقدية إلى أن هذه الأنظمة، رغم قوتها، فهي تعتمد بشكل أساسي على التعميم الإحصائي المستند إلى بيانات ضخمة، دون امتلاك إدراك حقيقي للمعاني التي تعالج(Marcus,2018) . وهذا يعيد طرح الإشكال الكلاسيكي حول الفرق بين السلوك الظاهري والعمليات الداخلية، وهو إشكال ظل حاضراً في قلب النقاش الفلسفي حول العقل منذ عقود.

في ضوء هذه المراجعة النظرية، يتضح أن الذكاء الصناعي هو موضوع تقاطع عدة تقاليد فلسفية متباينة، تتراوح بين الاختزال المادي، والوظيفية، والظاهراتية، والمقاربة المعلوماتية. ولا يمكن فهمه بشكل كافٍ دون استحضار هذا التعدد النظري، الذي يعكس عمق الإشكال وتعقيده. ومن هنا، يصبح من الضروري الانتقال إلى تحليل أكثر تفصيلاً للمواقف الفلسفية الكبرى التي تناولت هذه المسألة، بدءاً من نقد سورل، مروراً بمقاربة تشالمرز، وصولاً إلى التصور المعلوماتي عند فلوريدي.

الجزء الثاني: تحليل فلسفة سورل، ونقد الحوسبة الرمزية

يُعدّ موقف سورل من أكثر المواقف تأثيراً في نقد الأطروحة القائلة بإمكانية اختزال الذهن إلى برنامج

حسابي. إذ ينطلق سورل من اعتراض أساسي مفاده أن البرامج الحاسوبية، مهما بلغت من التعقيد فهي لا تتجاوز عتبة كونها أنظمة لمعالجة الرموز وفق قواعد تركيبية، دون أن تمتع بالقدرة على التأويل الدلالي لهذه الرموز. ومن هنا، فإن ما تفعله الآلة لا يعدو أن يكون تلاعبا بالرموزsymbol manipulation ليس إلا، بينما يظل الفهم الحقيقي عندها غائباً تماما.

تتجسد هذه الفكرة بشكل واضح في تجربة "الغرفة الصينية"، التي تُعد من أشهر الحجج الفلسفية في نقد الذكاء الصناعي القوي. في هذه التجربة الفكرية، يُفترض وجود شخص لا يفهم اللغة الصينية، لكنه يتلقى رموزاً صينية ويستخدم كتاب قواعد لتركيب ردود صحيحة شكلياً . من الخارج، قد يبدو وكأنه يفهم اللغة، لكنه في الحقيقة لا يمتلك أي فهم دلالي لما يقوم به.(Searle, 1980) وبالمثل، يرى سورل أن الحواسيب تعمل وفق هذا المبدأ عينه: تنفيذ قواعد صورية دون إدراك ما لها من معنى.

ينطلق هذا النقد من تمييز جوهري بين نوعين من الخصائص: الخصائص التركيبية (syntactic) من جهة، والخصائص الدلالية من جهة ثانية .(semantic) فالأنظمة الحاسوبية، بحسب سورل، تتعامل مع البنية الصورية للرموز فحسب، أي مع ترتيبها وعلاقاتها، دون أن يكون لهذه الرموز أي معنى داخلي بالنسبة للنظام نفسه. أما الفهم، فيتطلب وجود قصدية .(intentionality)أي أن تتجه الحالات الذهنية صوب موضوعات محددة، وهو ما يعتقد سورل أنه لا يمكن أن ينشأ أبدا من مجرد المعالجة الصورية وحدها.

يقود هذا التصور إلى نتيجة فلسفية مهمة، وهي أن الذهن لا يمكن اختزاله ببساطة إلى مجرد برنامج حاسوبي. فحتى لو تمكنا من محاكاة كل العمليات الحسابية المرتبطة بالسلوك الذكي، فإن ذلك لن يكون كافياً لإنتاج فهم حقيقي. وبالتالي، فإن الذكاء الصناعي، في صورته الحالية، لا يتجاوز عتبة محاكاة السلوك الذكي عند الإنسان وليس تجسيداً له.

غير أن هذا الموقف يثيرعدة إشكالات نقدية. أولها يتعلق بالافتراض الضمني لدى سورل بأن القصدية مرتبطة بالبنية البيولوجية للدماغ. فهو يرى أن الوعي والفهم ينشآن من خصائص بيولوجية خاصة، لا يمكن اختزالها إلى عمليات حسابية مجردة. لكن هذا الطرح يواجه سؤالاً مشروعا: ما الذي يجعل العمليات البيولوجية قادرة على إنتاج المعنى، في حين تعجز العمليات الصناعية عن ذلك؟ وهل يتعلق الأمر بالاختلاف في المادة، أم في طريقة التنظيم فحسب؟

كما أن حجة الغرفة الصينية، رغم قوتها التوضيحية، فإنها تعتمد على فصل حاد بين الداخل والخارج؛ بين ما يحدث داخل النظام وبين ما يظهر كسلوك. غير أن بعض الفلاسفة يرون أن هذا الفصل قد يكون مبالغاً فيه، خاصة في ظل المقاربات الوظيفية التي تعتبر أن الحالات الذهنية تُحدَّد من خلال أدوارها داخل النظام، وليس من خلال مادتها. وفقاً لهذا التصور، إذا كان النظام يؤدي الوظائف نفسها التي يؤديها الذهن البشري، فقد يكون من المشروع نسب بعض الخصائص الذهنية إليه.

مع ذلك، يصر سورل على أن الوظيفة وحدها لا تكفي، لأن الفهم يتطلب تجربة داخلية، بوصفها تجربة نوعية. وهنا يلتقي موقفه، جزئياً طبعا، مع الإشكال الذي طرحه تشالمرز، وإن كان من زاوية مختلفة. فبينما يركز سورل على غياب القصدية في الأنظمة الصناعية، يركز تشالمرز على مشكلة أعمق تتعلق بظهور الوعي ذاته.

ومن الجدير بالذكر أن نقد سورل لا يستهدف فقط الذكاء الصناعي، بل يمتد إلى التصور العام للذهن كآلة. فهو يعترض على النزعة الاختزالية التي تحاول تفسير الظواهر الذهنية بالكامل من خلال الحساب والتمثيل الرمزي. وفي هذا الإطار، يمكن اعتبار موقفه دفاعاً عن خصوصية الذهن البشري، باعتباره يتضمن خصائص لا

يمكن محاكاتها بالكامل عبر الأنظمة التقنية.

لكن بعض الباحثين، في المقابل، يرون أن التطور في نماذج الذكاء الصناعي الحديثة، خاصة تلك القائمة على التعلم العميق، قد يضعف من قوة هذا النقد، إذ أصبحت هذه الأنظمة قادرة على تحقيق نتائج مذهلة دون برمجة صريحة للقواعد، بل عبر التعلم من البيانات. ومع ذلك، يبقى السؤال قائماً حول ما إذا كانت هذه القدرات تمثل فهماً حقيقياً، أم مجرد تعميم إحصائي معقد .(Marcus, 2018)

لا تكمن أهمية موقف سورل في نقده للذكاء الصناعي فحسب، بل في إعادة فتح السؤال حول طبيعة الفهم والمعنى. فهو يدفعنا إلى التفكير في ما إذا كان الفهم يتطلب بالضرورة وعياً ذاتياً، أم أنه يمكن أن يتحقق عبر أنظمة لا تمتلك تجربة داخلية. يظل هذا السؤال سؤالا محورياً، من منظور الفلسفة المعاصرة لأنه يحدد الطريقة التي ننظر بها إلى الذكاء الصناعي: فهل هو مجرد أداة متقدمة فحسب، أم أنه كيان يمكن أن يقترب من خصائص الذهن البشري؟

في ضوء ما سبق، يمكن القول إن موقف سورل يمثل أحد الأعمدة الأساسية في النقاش الفلسفي حول الذكاء الصناعي، لأنه يضع حدوداً واضحة للمقاربة الحاسوبية. غير أن هذه الحدود لا تُغلق النقاش، بل تفتحه على تساؤلات أعمق تتعلق بطبيعة الوعي، وهو ما سيتم تناوله في الجزء التالي من خلال تحليل أطروحة تشالمرز حول المشكلة الصعبة للوعي.

الجزء الثالث: الوعي بوصفه مشكلة صعبة، وإمكانات الذكاء الصناعي من وجهة نظر تشالمرز

يمثل طرح تشالمرز أحد أكثر الإسهامات تأثيراً في فلسفة العقل المعاصرة، خاصة من خلال تمييزه الشهير بين "المشكلات السهلة" و"المشكلة الصعبة" للوعي(Chalmers, 1995) . فبينما تتعلق المشكلات السهلة بكشف الآليات الوظيفية للإدراك من قبيل التمييز الحسي، والانتباه، والذاكرة، فإن المشكلة الصعبة تتعلق بسؤال أعمق: لماذا توجد تجربة ذاتية أصلاً؟ ولماذا تكون العمليات الدماغية مصحوبة بإحساس داخلي؟

ينطلق تشالمرز من فكرة مفادها أن التفسير الفيزيائي التقليدي، رغم نجاحه في تفسير العديد من الظواهر الطبيعية، فإنه يظل قاصراً متى تعلق الأمر بتفسير الوعي الظاهراتي(phenomenal consciousness). فحتى لو تمكّنا من وصف كل حالة عصبية بدقة، فإن هذا الوصف لا يجيب عن سؤال "كيف يكون الشعور من الداخل". وهذا ما يجعل الوعي، بحسب تشالمرز، معطى غير مادي، ومن ثم لا يقبل الاختزال إلى السلوك الفيزيائي.

لهذا التمييز آثار عميقة على النقاش حول الذكاء الصناعي. فإذا كان الوعي يتضمن بعداً نوعياً غير قابل للاختزال، فإن مجرد محاكاة العمليات المعرفية قد لا يكون كافياً لإنتاج تجربة ذاتية. قد يتمكن نظام ما أن ينجح في أداء مهام ذكية دون أن يمتلك، مع ذلك، أي وعي داخلي. وهذا يعيدنا إلى التمييز بين السلوك الظاهر وبين التجربة الداخلية، وهو تمييز يتقاطع مع نقد سيرل، لكن من منظور مختلف.

غير أن تشالمرز لا يكتفي بطرح المشكلة، بل يفتح الباب أمام احتمالات نظرية متعددة. فهو لا يستبعد إمكانية ظهور الوعي في أنظمة غير بيولوجية، متى توفرت لها البنية التنظيمية المناسبة. وهذا ما يجعله يميل إلى نوع من "الوظيفية الموسعة"، التي لا تربط الوعي بمادة معينة، بل بأنماط معينة من التنظيم المعلوماتي أو السببي. ومع ذلك، يظل هذا الطرح مفتوحاً على التساؤل، لأنه لا يقدم معياراً حاسماً لتحديد متى يمكن اعتبار نظام ما نظاما واعياً.

في هذا السياق، يمكن القول إن المشكلة الصعبة التي يطرحها تشالمرز تضع حدوداً واضحة لأي تفسير اختزالي للوعي، سواء كان فيزيائياً أو حاسوبياً. فهي تشير إلى وجود فجوة تفسيرية بين الوصف الموضوعي

للعمليات، وبين التجربة الذاتية التي ترافقها. وهذه الفجوة تمثل تحدياً جوهرياً لأي نظرية تسعى إلى تفسير الذهن بشكل كامل.

ومن المهم الإشارة إلى أن هذا النقاش لا ينفصل عن إسهامات فلسفية سابقة، خاصة تلك التي قدمها توماس نيغل، الذي أكد أن التجربة الذاتية تمتلك طابعاً كيفياً، وهو طابع لا يمكن الوصول إليه من منظور خارجي صرف .(Nagel,1974) فمهما بلغ التفسير العلمي من الدقة، فإنه لا يستطيع نقل "ما يشبه أن تكون" كائناً واعياً من الداخل، وهو ما يعزز أطروحة تشالمرز حول خصوصية الوعي.

يترتب على هذا التمييز سؤال حاسم يستهدف مفهوم الذكاء الصناعي في حد ذاته: هل يمكن لنظام غير واعٍ أن ينتج سلوكاً يشبه السلوك الواعي دون أن يمتلك تجربة ذاتية؟ وإذا كان الأمر كذلك، فهل يكفي هذا السلوك لنقول إن النظام "يفهم" أو "يعرف"؟ هذه الأسئلة تكشف أن تقييم الذكاء لا يمكن أن يعتمد على الأداء الخارجي فحسب، بل يتعين أن يأخذ بعين الاعتبار طبيعة العمليات الداخلية.

في المقابل، يشير بعض الباحثين إلى أن التقدم في نماذج التعلم العميق قد يجعل من الأنظمة الصناعية أكثر قرباً من محاكاة العمليات المعرفية المعقدة، مما يزيد من صعوبة التمييز بين الفهم الحقيقي والمحاكاة المتقدمة.(Russell & Norvig, 2021) ومع ذلك، يظل هذا التقدم غير كافٍ لحسم السؤال حول الوعي، لأنه لا يقدم دليلاً على وجود تجربة ذاتية داخل هذه الأنظمة.

ومن جهة أخرى، يثير طرح تشالمرز إمكانية التفكير في الوعي كخاصية يمكن أن تظهر في أنظمة غير بيولوجية، مما يفتح المجال أمام نقاشات حول "الذكاء الصناعي الواعي". غير أن هذه الفرضية تظل فرضية نظرية، وذلك لأنها تفتقر إلى معايير تجريبية واضحة يمكن بموجبها التحقق من وجود الوعي في الآلة.

تكمن أهمية موقف تشالمرز في كونه لا يحاول اختزال الوعي، بل يعترف بغموضه ويجعل منه نقطة انطلاق للتفكير الفلسفي. فهو يرفض التبسيط المفرط الذي يحاول رد كل شيء إلى الفيزياء، أو الحساب، ويدعو إلى الاعتراف بأن هناك جزءا من الواقع لا يزال غير مفهوم بالكامل. وهذا الاعتراف لا يعني الاستسلام للغموض، بل يشكل دعوة لتوسيع أفق البحث العلمي والفلسفي.

في ضوء ذلك، يمكن القول إن المشكلة الصعبة للوعي تمثل تحدياً أساسياً، أمام أي محاولة لفهم الذكاء، سواء أكان وعيا بشرياً، أم صناعياً. توحي المشكلة بأن الذكاء ليس مجرد قدرة على المعالجة أو الاستجابة، بل قد يتضمن عنصراً ذاتياً لا يمكن تجاهله. ومن هنا، يصبح السؤال حول إمكانية وعي الآلة مرتبطاً مباشرة بسؤال أعمق، وهو سؤال طبيعة الوعي نفسه.

في الجزء القادم، سيتم الانتقال إلى مقاربة مختلفة تماماً، وهي مقاربة يقدمها فلوريدي، والتي لا تركز على الوعي بقدر ما تركز على البعد المعلوماتي والأخلاقي للذكاء الصناعي، مما يفتح منظوراً جديداً لفهم موقع هذه التقنية في العالم المعاصر.

الجزء الرابع: الفضاء المعلوماتي، والتحول الأخلاقي في فهم الذكاء الصناعي من وجهة نظر فلوريدي.

يقدّم فلوريدي مقاربة فلسفية متميزة للذكاء الصناعي تنقل النقاش من مركزية الوعي والذهن إلى مركزية "المعلومة" بوصفها البنية الأساسية لفهم الواقع المعاصر. فبدلاً من التساؤل عمّا إذا كانت الآلة تفكر أو تشعر مثلا، يقترح فلوريدي إعادة صياغة الإشكال ضمن إطار أوسع دعاه "بالفضاء المعلوماتي" (infosphere)، بوصفه فضاء يشمل جميع الكيانات، والعمليات، التي تتبادل المعلومات، وتتفاعل داخلها، وذلك بغض النظر عما إذا كانت بشرية أو غير بشرية .(Floridi, 2013)

وفقاً لهذا التصور، لم يعد العالم يُفهم باعتباره بنية من الأشياء المادية فحسب، بل باعتباره شبكة معقدة من العلاقات المعلوماتية التي تشكّل البنية الأساسية للوجود. وفي هذا السياق، يصبح الذكاء الصناعي جزءاً من هذه الشبكة، وليس كياناً منفصلاً عنها. فهو ليس ذهنا مستقلاً ، ولا كذلك مجرد أداة محايدة، بل عنصر فاعل يشارك في إنتاج، وتوزيع، المعلومات داخل النظام العام.

لهذا التحول في المنظور الفلسفي آثار عميقة على طريقة تقييم الذكاء الصناعي. فبدل التركيز على مسألة ما إذا كانت الآلة تمتلك وعياً أو فهماً ، أضحى الاهتمام ينصب على كيفية تأثيرها في البيئة المعلوماتية، وعلى طبيعة العلاقات التي تنشئها مع المستخدمين والأنظمة الأخرى. ومن هذا المنطلق تصبح الأسئلة الأخلاقية مرتبطة بكيفية تصميم هذه الأنظمة واستخدامها، وليس بطبيعتها الداخلية فحسب.

في هذا الإطار، يطرح فلوريدي مفهوم "الأخلاقيات المعلوماتية" التي تهدف إلى تنظيم العلاقة بين الفاعلين داخل الفضاء المعلوماتي بطريقة تحافظ على القيم الأساسية من قبيل العدالة، والشفافية والاحترام. لا يشمل هذا التصور البشر فحسب، بل حتى الكيانات الرقمية التي تساهم في تشكيل البيئة المعلوماتية(Floridi et al., 2018) . وبهذا المعنى، لا يُنظر إلى الذكاء الصناعي كفاعل أخلاقي بالمعنى التقليدي، بل يُدرج ضمن منظومة أخلاقية أوسع تتعامل مع تأثيراته.

يمثل هذا الطرح انتقالاً مهماً من الإشكال الأنطولوجي حول طبيعة الوعي إلى الإشكال الأخلاقي حول تنظيم الفضاء المعلوماتي. فبينما ركّزت فلسفة الذهن التقليدية على السؤال: "ما هو الذهن؟"، يطرح فلوريدي سؤالاً مختلفاً : "كيف ينبغي أن ننظم العالم المعلوماتي بطريقة مسؤولة؟". وهذا التحول يعكس تغيراً في أولويات البحث الفلسفي في العصر الرقمي.

غير أن هذا التصور لا يخلو من إشكالات. فمن جهة، قد يُؤاخذ عليه أنه يتجاوز السؤال حول الوعي دون تفسيره، مكتفياً بإعادة صياغة المشكلة في إطار عملي. ومن جهة أخرى، قد يُطرح تساؤل حول مدى إمكانية التعامل مع الأنظمة غير الواعية ك"فاعلين" في السياق الأخلاقي، حتى وإن كانت لا تمتلك قصدا ولا قصدية. فالمسؤولية الأخلاقية تقليدياً ترتبط بالنية والوعي، وهو ما لا ينطبق على الأنظمة الصناعية.

مع ذلك، يرى فلوريدي أن الأخلاق لا ينبغي أن تقتصر على الكيانات الواعية فحسب، بل يجب أن تأخذ بعين الاعتبار التأثيرات الناتجة عن جميع الفاعلين داخل النظام المعلوماتي. فحتى لو لم تكن الآلة مسؤولة أخلاقياً بالمعنى التقليدي، فإن استخدامها وتصميمها وتوظيفها يترتب عليه آثار أخلاقية يجب تنظيمها. وهذا ما يجعل المسؤولية موزعة بين أطراف شتى، تشمل المطورين، والمستخدمين، ومعهم المؤسسات.

في هذا السياق، يتقاطع تصور فلوريدي مع بعض النقاشات المعاصرة حول أخلاقيات الذكاء الصناعي، خاصة فيما يتعلق بقضايا مثل التحيز الخوارزمي، وخصوصية البيانات، والشفافية. فقد أظهرت دراسات متعددة أن الأنظمة الذكية قد تعكس التحيزات الموجودة في البيانات، التي تُدرّب عليها مما يؤدي إلى نتائج غير عادلة في بعض الحالات .(O'Neil, 2016) وهذا يبرز أهمية التفكير في الذكاء الصناعي ليس كمسألة تقنية فحسب، بل كمسألة اجتماعية وأخلاقية أيضاً .

ومن ناحية أخرى، يتيح الإطار المعلوماتي، الذي يقترحه فلوريدي، فهماً جديداً للعلاقة بين الإنسان والتقنية، حيث لم تعد التكنولوجيا مجرد أدوات خارجية يستخدمها الإنسان، بل أصبحت جزءاً من البيئة التي يعيش فيها ويتفاعل معها. وهذا ينسجم مع بعض المقاربات التي ترى أن الحدود بين الطبيعي والصناعي أصبحت أكثر تداخلاً في العصر الرقمي.

كما أن هذا التصور يعيد تعريف مفهوم الفاعلية (agency)، بحيث لا يقتصر على الكائنات الواعية فحسب، بل يمتد ليشمل الأنظمة التي تؤثر في تدفق المعلومات واتخاذ القرار. غير أن هذا التوسيع للمفهوم تترتب عنه تساؤلات فلسفية حول حدود المسؤولية، وكيفية التمييز بين الفاعل الأخلاقي وغير الأخلاقي داخل هذه الشبكة المعقدة.

في النهاية، يمكن القول إن مقاربة فلوريدي لا تهدف إلى الإجابة عن السؤال التقليدي حول ما إذا كان الذكاء الصناعي يمتلك وعياً، بل تسعى إلى إعادة توجيه النقاش نحو كيفية التعامل معه ضمن إطار أخلاقي ومعلوماتي شامل. فهي تقدم منظوراً عملياً يساعد على إدارة التحديات الناتجة عن انتشار هذه التقنيات، دون الدخول في إشكالات ميتافيزيقية قد لا تكون قابلة للحسم.

وبهذا، يشكّل تصور فلوريدي استكمالا للمقاربات التي قدمها كل من سورل وتشالمرز، بحيث يضيف بعداً جديداً في النقاش، الذي يتمثل في التركيز على البنية المعلوماتية للعالم بدلاً من الاقتصار على طبيعة الوعي، أو الفهم. وفي الجزء القادم، سيتم الانتقال إلى مرحلة تركيبية تجمع بين هذه المواقف، من خلال إجراء مقارنة فلسفية نقدية بينها، وتحليل وجوه الاتفاق والاختلاف بينها بشكل منهجي.

الجزء الخامس: مقارنة نقدية بين سورل وتشالمرز وفلوريدي

يقدم كل من سورل وتشالمرز وفلوريدي ثلاث مقاربات فلسفية متميزة لفهم الذكاء الصناعي، تنطلق من خلفيات نظرية مختلفة وتجيب عن أسئلة متباينة، لكنها تلتقي جميعاً في محاولة تفسير العلاقة بين العقل، والوعي، والمعلومة، والتقنية. وتكمن أهمية هذا التعدد، في كونه يعكس تعقد الظاهرة، وفي كونه يؤكد على أن الذكاء الصناعي لا يمكن مقاربته من وجهة نظر ضيقة.

يمكن القول إن موقف سورل يتمحور حول الدفاع عن خصوصية العقل البشري، من خلال التأكيد على أن الفهم الحقيقي يتطلب قصدية داخلية لا يمكن للأنظمة الحاسوبية تحقيقها عبر المعالجة الرمزية وحدها .(Searle, 1980) فهو يميز بشكل صارم بين الصيغة والمعنى، ويرى أن الحواسيب، مهما بلغت من التعقيد، فهي تظل عاجزة عن تجاوز المستوى التركيبي إلى المستوى الدلالي. ومن هذا المنطلق، يرفض سورل فكرة أن البرامج الحاسوبية يمكن أن تمتلك عقلاً أو وعياً، معتبراً أنها مجرد أدوات لمحاكاة السلوك الذكي.

في المقابل، يقدم تشالمرز مقاربة أكثر انفتاحاً، حيث لا ينفي إمكانية وجود وعي في أنظمة غير بيولوجية، لكنه يميز بين القدرة على أداء الوظائف المعرفية وامتلاك تجربة ذاتية. فالمشكلة الصعبة للوعي عنده تشير إلى فجوة تفسيرية بين العمليات الفيزيائية والتجربة الشعورية (Chalmers, 1995). وعلى عكس سورل، لا يربط تشالمرز الوعي بالبنية البيولوجية بشكل حصري، بل يعتبره ظاهرة قد تنشأ في أنظمة ذات تنظيم معلوماتي مناسب، حتى لو كانت صناعية.

أما فلوريدي، فيتجاوز هذا النقاش التقليدي حول الوعي ليعيد صياغة الإشكال في إطار معلوماتي- أخلاقي. فهو لا يهتم أساساً بما إذا كانت الآلة واعية أم لا، بل يركز على دورها داخل الفضاء المعلوماتي وتأثيرها في البيئة الرقمية .(Floridi, 2013) ومن هذا المنظور، يصبح الذكاء الصناعي فاعلاً ضمن شبكة من العلاقات المعلوماتية، مما يستدعي التفكير في كيفية تنظيم هذه العلاقات أخلاقياً بدلاً من الانشغال بطبيعة الوعي نفسه.

إذا قورنت هذه المواقف الثلاثة، يمكن أن نلاحظ أن سورل يتبنى موقفاً أنطولوجياً محافظاً، يركز على الحدود بين الإنسان والآلة، ويرى أن هذه الحدود لا يمكن تجاوزها من خلال الحوسبة. في حين يتبنى تشالمرز موقفاً أنطلوجيا أكثر انفتاحاً، بحيث يقر بإمكانية ظهور الوعي في كيانات غير بيولوجية، لكنه في الوقت نفسه

يقول بوجود مشكلة تفسيرية عميقة لم تجد حلها بعد. أما فلوريدي، فينتقل بالنقاش من المستوى الأنطولوجي إلى المستوى الأخلاقي المعلوماتي، متجاوزاً السؤال عن طبيعة الوعي إلى سؤال كيفية إدارة تأثيرات الأنظمة الذكية.

يعكس هذا التباين اختلافاً في الأولويات الفلسفية: فبينما ينشغل سورل بمسألة المعنى والقصدية، يركز تشالمرز على طبيعة التجربة الذاتية، في الوقت الذي يهتم فلوريدي بتنظيم الفضاء المعلوماتي. ومع ذلك فإن هذه المقاربات لا تتعارض بالضرورة، بل يمكن النظر إليها كمستويات تحليلية مختلفة لنفس الظاهرة.

من الناحية النقدية، يمكن القول إن موقف سورل يقدم تحذيراً مهماً ضد النزعة الاختزالية، التي قد تؤدي إلى المبالغة في تقدير قدرات الذكاء الصناعي، لكنه في المقابل قد يكون محدوداً من التفسير، لأنه يفترض مسبقاً أن القصدية لا يمكن أن تنشأ إلا في أنظمة بيولوجية، دون تقديم دليل حاسم في الأمر. أما تشالمرز، فرغم عمق تحليله للمشكلة الصعبة، فإنه كذلك لا يقدم حلاً نهائياً، بل يترك الباب مفتوحاً أمام احتمالات متعددة، مما يجعل موقفه يطغى عليه الطابع الوصفي، وبذلك يكون وصفا لا تفسيرا حاسماً.

في حين نجد أن فلوريدي يقدم إطاراً عملياً للتعامل مع الذكاء الصناعي، إلا أن مقاربته قد تُنتقد لكونها تتجاوز بعض الأسئلة الميتافيزيقية الأساسية، مكتفية بإعادة تنظيم الإشكال من وجهة نظر تطبيقية. لكنها تظل مقاربة ذات قيمة كبيرة من الناحية العملية، خاصة في ظل التحديات الأخلاقية التي يطرحها انتشار الذكاء الصناعي في مختلف مجالات الحياة.

إن الجمع بين هذه المقاربات يسمح ببناء رؤية تركيبية للذكاء الصناعي، ترى فيه ظاهرة متعددة الأبعاد لا يمكن اختزالها في تفسير واحد. فهو من جهة موضوع فلسفي يتعلق بطبيعة الذهن والوعي، ومن جهة أخرى ظاهرة تقنية ذات آثار اجتماعية وأخلاقية واسعة. وبالتالي، فإن فهمه يتطلب مقاربة متعددة المستويات تأخذ بعين الاعتبار التعقيد الذي يميزه.

وفي ضوء هذا التحليل، يمكن القول إن الذكاء الصناعي يشكّل نقطة التقاء بين ثلاث إشكاليات فلسفية كبرى: إشكالية المعنى (سورل) ، وإشكالية الوعي (تشالمرز)، وإشكالية التنظيم المعلوماتي والأخلاقي (فلوريدي). وكل واحدة من هذه الإشكاليات تسلط الضوء على جانب معين من الظاهرة، دون أن تستنفدها بالكامل.

في الجزء الأخير، سيتم تقديم تركيب نهائي يجمع نتائج هذا التحليل، من خلال صياغة خاتمة نقدية شاملة تعيد ربط مختلف الخيوط النظرية في إطار فلسفي متكامل.

الجزء السادس: تركيب

إن تحليل إشكالية الذكاء الصناعي من خلال المواقف الفلسفية لكل من سورل وتشالمرز وفلوريدي يكشف أن هذه الظاهرة لا يمكن اختزالها في بعد واحد، بل تتطلب فهماً متعدد المستويات يدمج بين التحليل الأنطولوجي، والإبستمولوجي، والأخلاقي. فكل مقاربة من هذه المقاربات تضيء جانباً معيناً من الإشكال، لكنها لا تستنفده بالكامل، مما يجعل الذكاء الصناعي موضوعاً فلسفياً مفتوحاً على التأويل والنقاش المستمر.

لقد بيّن سورل أن المعالجة الصورية، مهما بلغت من التعقيد، فإنها لا تكفي لإنتاج الفهم الحقيقي، لأن الفهم يتضمن قصدية داخلية مرتبطة بالمعنى، وليس فقط بالبنية الصورية .(Searle, 1980) وهذا الطرح يضع حدوداً واضحة للنموذج الحاسوبي التقليدي، ويؤكد أن الذكاء لا يمكن اختزاله في مجرد تنفيذ قواعد رمزية. غير أن هذا الموقف، رغم قوته النقدية، يظل مرتبطاً بافتراضات حول خصوصية البنية البيولوجية، وهي افتراضات تحتاج إلى مزيد من التبرير الفلسفي.

في المقابل، يقدّم تشالمرز إطاراً تحليلياً يسلط الضوء على عمق المشكلة المتعلقة بالوعي، من خلال التمييز بين الوظائف المعرفية والتجربة الذاتية .(Chalmers, 1995) فحتى لو تمكنا من تفسير جميع العمليات الفيزيائية المرتبطة بالإدراك، فإن ذلك لا يفسر ظهور التجربة الشعورية نفسها. وهذا ما يجعل الوعي، في نظره، ظاهرة غير قابلة للاختزال، ويفتح الباب أمام إمكانية وجود أشكال متعددة من الوعي قد لا تقتصر على الكائنات البيولوجية. ومع ذلك، فإن هذا الطرح لا يقدم معياراً حاسماً لتحديد متى يكون النظام واعياً، مما يترك الإشكال مفتوحاً على احتمالات نظرية متعددة.

أما فلوريدي، فينقل النقاش إلى مستوى مختلف تماماً، حيث يعيد تعريف العلاقة بين الإنسان والتقنية ضمن إطار الفضاء المعلوماتي، الذي يشمل جميع الكيانات والعمليات التي تتغذى بالمعلومات (Floridi, 2013). ومن هذا المنظور، لا يُنظر إلى الذكاء الصناعي ككيان مستقل أو كذهن بديل، بل كعنصر ضمن شبكة معلوماتية أوسع. وبدلاً من التركيز على مسألة الوعي، ينصب الاهتمام على كيفية تنظيم هذه الشبكة بشكل لا يقل أخلاقية، ومسؤولية، في استخدام التكنولوجيا .(Floridi et al., 2018)

يترتب عن تركيب هذه المقاربات نتيجة فلسفية لا تقل أهمية، وهي أن الذكاء الصناعي لا يمكن فهمه من خلال معيار واحد، بل من خلال تداخل عدة مستويات تفسيرية. فعلى المستوى الأنطولوجي، يظل السؤال قائماً حول طبيعة الوعي وإمكان وجوده في الأنظمة الصناعية. وعلى المستوى الإبستمولوجي، يبرز السؤال حول طبيعة الفهم، والمعرفة، وما إذا كان يمكن اختزالهما في المعالجة الحسابية. أما على المستوى الأخلاقي، فتبرز تحديات تتعلق بتنظيم استخدام هذه التقنيات، وتحديد المسؤوليات المترتبة عليها.